الباب السادس

عصر الفوضى

الفصل الأول

محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمهدى :

كان المنصور بن أبى عامر يستعين بالبربر ، فاتخذهم جندا له وظلوا أعوانا لأبنائه من بعده ، وعندما ولى الحجابة عبد الرحمن المأمون انتقضوا عليه لسوء سيرته .وكان بنو أمية يكرهون البربر كرها شديدا لأنهم كانوا سبب تغلب المنصور وابنيه وهم الذين أعانوه على اغتصاب سلطة الخليفة الأموى هشام الثانى . وعم السخط على البربر حتى شمل أهل قرطبة ، لما كانوا يلاقونه من استبداد البربر وسوء معاملتهم . فلما تولى المهدى أظهر الحقد عليهم ، وطردهم من القصر وأمعن فى اضطهادهم وأوغر صدر العامة عليهم

وكانت الأمور قد سارت سيرا حسنا فى مستهل خلافة المهدى . فدخل الكل فى طاعته ، ولكن الناس لم يلبثوا أن عرفوا أن زوال بنى عامر لم يحسن من حال أحد ولم يقض على المظالم ، فاستمر تذمرهم . وكان خلق المهدى نفسه موضع شكواهم إذ كان قاسيا ، سفاحا ، معدوم الكفاية ، فاسقا . فبدأ بنزع سلاح سبعة آلاف من العامة مما أسخطهم عليه ، ثم نفى من قرطبة موالى بن عامر من الجند الصقالبة مما دفعهم إلى الانضمام إلى أعدائه . وأغضب الفقهاء بعكوفه على اللهو والقصف وعدم خروجه من القصر . فاشتهر بين الناس بالسكير. وزاد فى حماقته فطر دالبربر

من الجيش ، وأمر من بقى منهم بألا يركبوا الخيل ولا يتقلدوا السلاح وأباح دورهم لنهب الرعاع فاصبحوا فى عداد خصومه ومبغضيه . وأصبح شغله الشاغل الخوف من أن يذكر الناس الخليفة هشاما الثانى الذى كان لا يزال حيا فيعيدوه إلى العرش

إعلان وفاة هشام الثانى المؤيد :

هدى المهدى تفكيره إلى اعلان وفاة هشام ، فأحضر جثة مسيحى يشبهه فى ابريل عام ١٠٠٩ م ، ونقلها إلى القصر حيث عرضها على الكثيرين ممن يعرفون هشاما . ورشا من بالقصر حتى أقروا بصحة الوفاه ، ثم دعا العلماء والوزراء والقواد لتشييع جنازة الخليفه ، واحتفلت قرطبة كلها بدفن هشام المزعوم فى مقابر المسلمين باجلال وأبهة يليقان بمقام الخلافة ، ونقل المهدى هشاما الحقيقى إلى قصر أحد وزرائه وسجنه فيه

خروج البربر ومبايعة هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر :

لما اطمأن المهدى من ناحية هشام الثانى لم يعد يكترث بالأخطار ، فأمر بسجن الأمير سليمان بن عبد الرحمن الناصر ، وأذاع أنه سيقتل قواد البربر ، فثاروا عليه وتولى قيادتهم الأمير هشام بن الأمير سليمان المسجون وانضم اليهم غوغاء قرطبة وسار الجميع الى قصر المهدى ، فلما علم المهدى بثورتهم قابل زعيمهم الأمير هشام بن سليمان ، وتحدث اليه على انفراد وأطلق سراح أبيه سليمان بن عبد الرحمن الناصر . ولكن هشاما أصر على طلب الخلافة لنفسه ، فطاوله المهدى وأخذ يحاوره كسبا للوقت . وتصادف أن الجنود البربر من أنصار الأمير هشام بن سليمان استبطأوه

فاخذوا قتلا للوقت ينهبون حوانيت التجار فى حى السروجية . فهب أهل قرطبة إلى أسلحتهم فتقلدوها ، لا دفاعا عن المهدى ، ولكن دفاعا عن أموالهم . واستمر النزاع يوما وليلة . وفى صباح الجمعة ٣ يونيو عام ١٠٠٩ م هزم البربر وفروا بلا نظام إلى خاوج قرطبة ، وطاردهم أهل قرطبة وانصرف فريق من الغوغاء إلى نهب منازل البربر وسبى نسائهم ، وأسروا هشاما وابنه الأمير سليمان بن عبد الرحمن الناصر وأخاه أبا بكر وقتلوهم

ولما جمع فلول البربر شتاتهم أقسموا لينتقمن من أعدائهم ولحق بهم سليمان ابن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ابن عم هشام المقتول ، فبايعوه بالخلافة ولقبوه بالمستعين بالله .

النزاع بين المهدى والمستعين واستعانة كل منهما بالمسيحيين:

سار البربر إلى مدينة سالم ، وطلبوا إلى واضح حاكم الحدود أن ينضم اليهم لكنه رفض ، فقاتلوه وهزموه ، وأعوزهم القوت فارسلوا إلى سانكو أمير قشتالة يعرضون عليه التحالف ، و يطلبون منه المعونة . فوجد رسولهم عنده رسلا من قبل المهدى قد سبقوه ، يعرضون على سانكو الخيل والبغال والمال والحلل والجواهر و يعدونه بتسليم مدن وحصون اليه إذا انضم الى المهدى . وكان الموقف على عكس ذلك تماما منذ خمسة أشهر . وكان هذا بدأ الانقلاب فى تاريخ الاسلام بالأندلس ومستهل المآسى المفجعة . إذا أصبح مصيرها فيه بيد الأمراء المسيحيين ، والمسلمون يستعدونهم على اخوانهم وبنى جلدتهم . وبعد أن كان المسلمون هم الآمرون الناهون ، يملون ارادتهم على جميع الأمراء المسيحيين ، إذا بأمير مسيحى واحد

هو أمير قشتاله ، يصبح معقد الرجاء ، ومناط الآمال ، والمقرر لمصير الاسلام فى الأندلس

ولما كان سانكول على بينة من أمر المهدى وضعف مركزه ، فانه وعد البربر بالمساعدة إن هم تعهدوا بتسليم الحصون التى عرضها عليه رسل المهدى . ولما قبلوا ذلك ، صرف سانكو رسل المهدى وأرسل إلى معسكر البربر طعاما وفيرا (١٠٠٠ ثور و٥٠٠٠ رأس من الغنم و ١٠٠٠ مركبة من الاطعمة)

فلما انتعشوا وأطعموا من جوع زحفوا ومعهم سانكو على مدينة سالم ، ودعو واضحا مرة أخرى إلى الانضمام اليهم ، ولما أبى تركوه وشأنه ، وأسرعوا بالمسير إلى قرطبة . فتبعهم واضح ، ولكنهم هزموه وردوه على أعقابه . ولما قاربوا مدينة قرطبة خرج المهدى للقائهم وعسكر فى السهل الواقع شرقى المدينة . فدارت عليه الدائرة فى ٥ نوفمبر عام ١٠٠٩ م — ٤٠٠ هـ وهزم اتباع المهدى من أهل قرطبة وفى فرارهم غرق منهم كثير فى نهر الوادى الكبير . ويقول ابن حيان المؤرخ ان عدد من مات فى ذلك اليوم عشرة آلاف . أما المهدى فهرب إلى قصره ولما حاصر البربر القصر أخرج المهدى الخليفة البائس هشاما الثانى من محبسه وتنازل له عن الخلافة ، ونادي بنفسه وزيرا له ، وأرسل القاضى ابن ذكوان إلى البربر يخبرهم بذلك فسخروا منه وقالو :

« بالامس مات هشام وسرت أنت وأميرك فى جنازته . وصليتم عليه ، فكيف يكون اليوم حيا ؟ واذا كان ما تقوله حقا فنحن نشكر الله على حياة هشام ، ولكن لاحاجه لنا به فسليمان أميرنا وخليفتنا »

وأخذت أهل قرطبة رهبة جند سليمان فاقبلوا يسلمون عليه بالخلافة . وفر

المهدى إلى طليطلة ، وعاد سانكو وجنده القشتاليون مثقلين بالأسلاب والغنائم إلى بلادهم . وظل المسكين هشام الثانى المؤيد سجيناً فى يد سليمان كما كان فى يد المهدى ، بعد أرغمه سليمان على التنازل له عن الخلافة مرة أخرى

وكان المهدى محمد بن هشام قد وصل إذ ذاك إلى طليطلة حيث رحب به أهلها . وتبعه سليمان المستعين بالله الذى وصل إلى مدينة سالم ، فانضم اليه كثير من جندها الصقالبة وأخلى واضح المدينة ، فدخلها سليمان بلا مقاومة . وخابر واضح أميرى قطلونية المسيحيين ، ووعدهما بتسليم بعض المدن ان أمداه بجند من عندهما . ولما وصله المدد المطلوب سار مع حلفائه حتى انضم إلى جيش المهدى أما سليمان فعاد أدراجه إلى قرطبة ، وأراد البربر أن يظهروا الهزيمة ليستدرجوا جند قطلونية ثم يكروا عليهم بعد ذلك ، ولكن سليمان لم يدرك غرض البربر ، فظنهم قد هزموا حقا ، وفر من الميدان

على ان فرسان البربر لم يتأثروا بفراره ، وظلوا يستبسلون فى قتالهم ، وقتلوا ٦٠ من رؤساء الجند المسيحين . وأخيرا انسحبوا إلى الزهراء ، وعاد المهدى الى قرطبة . ولما دخلها وقعت المدينة المسكينة فريسة فى أيدى الجند القطلونيين المسيحيين ، الذين نهبوها بعد ما نهبها قبلهم بستة أشهر جنود البربر وقشتالة . وتنازع الفريقان المدينة مرارا

وارتكب المسيحيون القطالونيون أثناء ذلك فظائع مريعة . وأخيرا رفض القطالونيون البقاء فى خدمة المهدى لما لحقهم من الخسائر . فتركوا جيش المهدى راجعين إلى بلادهم . ومن الغريب أن أهل قرطبة حزنوا لرجوعهم إلى بلادهم وأخذوا يعزون بعضهم بعضا كمن فقد عزيزا عليه لأنهم كانوا يتوقعون من

البربر ، عند انفرادهم فى الميدان ، فظاعة تفوق كل ماذهب اليه القطالونيون المسيحيون

إعادة هشام الثانى مرة أخرى إلى العرش

أخيرا فكر زعماء الجيش فى خلع الخليفتين ، واعادة هشام الثانى المؤيد إلى العرش ودبروا لذلك مؤامرة انتهت بقتل المهدى ، وتولية هشام الثانى ، واقامة واضح حاجبا له . وكانت مدة ولاية المهدى منذ قام إلى أن قتل عشرة أشهر

الفصل الثانى

استفحال الفوضى

لم يكن من الصعب على واضح أن يستغل ضعف هشام الثانى ، فيسيطر عليه كما سيطر عليه المنصور والمظفر والمأمون من قبل . لكن الجو لم يكن قد قدصفا له بعد ، إذ كان هناك سليمان المستعين بالله وجنوده البربر خارج قرطبة وكان واضح قد اتخذ الصقالبة جندا له ، فاغضب هذا فريقاً من أهل قرطبة . وهؤلاء تآمروا مع سليمان على أن يهاجم البربر قرطبة فى يوم معين فينضمون اليهم وكشف واضح المؤامرة ، وقتل زعماءها وأفسد التدبير . ثم صد هجمات سليمان وجنده البربر وردهم مهزومين

أمير قطالونيا يساوم الفريقين المتنازعين

لما رأى سليمان المستعين بالله ضعف موقفه ، سعى فى الحصول على معونة سانكو أمير قطالونيه ، وحليفه السابق . فارسل سانكو خطابا إلى واضح يهدده فيه بالانضمام إلى سليمان إن لم ينزل له واضح عن بلاد وحصون سماها . ولخطورة الأمر لم يقبل واضح أن يأخذ المسؤلية على عاتقه . فدعا مجلسا من علية القوم ووجوه الدولة ، وعرض عليهم مطالب سانكو ، وفوض اليهم الرأى فيما يفعلون . فاضطروا إلى إجابة مطالبه خشية أن ينضم إلى البربر ، وتغاضوا عن كل الاعتبارات الوطنية . وفى سبتمبر عام ١٠١٠ م عقد واضح مع سانكوا معاهدة سلمه بمقتضاها مائتى حصن وخمس بلاد . ولما رأى الأمراء المسيحيون

الآخرون أن حصون المسلمين لقمة سائغة يسهل الاستحواذ عليها بقليل من التهديد والوعيد ، حذوا حذوه وفى كل مرة كانت تجاب مطالب المسيحيين . فاصبحت الدولة الاسلامية التى تمزقها الحروب الداخلية ، وتستنزف ثروتها الفتن والاضطرابات ، غنيمة سهلة لاعدائها . ومما يشك فيه أن أهل قرطبة كانوا إذ ذاك مغتبطين بزوال بنى عامر كما اغتبطوا يوم أن ثاروا على سانكول ، غير حاسبين للعواقب حسابا . فاصبحوا مرغمين على أن يطأطئوا الرءوس أمام أعدائهم المسيحين وقضى عليهم أن يتخبطوا فى الفتن خبط العشواء

حصار الزهراء وتخريبها

واستمر البربر باسم أميرهم سليمان المستعين ، يعيثون فى الأرض فسادا . ثم حاصروا قرطبة وتحولوا عنها إلى الزهراء ، فحاصروها ثلاثة أيام ، ثم دخلوها فى ٤ نوفمبر سنة ١٠١٠ م . وتلى سقوط الزهراء فى أيدى البربر مذبحة فظيعة قتل فيها جميع من بالزهراء من رجال ونساء وأطفال . ولم يترك البربر بها أحدا حتى من احتموا بالمسجد . وبعد نهب الزهراء ، أعمل البربر فيها النيران ، فاحترقت مدينة من أجمل مدن أوربا وأصبحت أكواما من رماد . واستمر البربر يخربون ضواحى قرطبة . ففر أهلوها إلى داخل أسوار المدينة ، مما أحدث بها مجاعة ذهب ضحيتها الفقراء من السكان ، وأصبحت الحكومة فى عوز شديد ، حتى أن واضحا اضطر إلى بيع البقية الباقية من مكتبة الحكم ، للحصول على مال يسير — وحدث مثل ذلك فى مدن أخرى كان يحاصرها البربر ، فاصبحت الأندلس فى حالة تستوجب الرثاء .

تتابع الفتن والحوادث فى قرطبة

ازداد الحال سوءا فى عام ١٠١١م مما لقى اليأس فى قلب واضح ، فارسل إلى سليمان المستعين بالله يطلب الصلح . ولما علم زعماء الصقالبة بمساعيه قتلوه وحملوا رأسه على رمح ، وطافوا به فى شوارع قرطبة سنة ١٠١١ م فحكم المدينة من بعده ابن أبى وضاء . وقام علماء الدين يبثون النخوة والبسالة فى قلوب أهل قرطبة ، فقاتلوا أعداءهم البربر حتى صدوهم عن مدينتهم وانتصروا عليهم. وقاتل أهل قرطبة بقيادة ابن أبى وضاء قتال المستميت حتى اضطروا البربر إلى فك الحصار عن المدينة ، كما طردوهم من حول بلنسيه . ولكن البربر عادوا إلى الظهور امام قرطبة مرة أخرى ، وأخيرا انتصروا على المدافعين عنها ، ودخلوها فى ١٩ ابريل عام ١٠١٢ ، وسفكوا دم أهلها فجرى أنهارا ونهبوا المنازل وخربوا كل عامر ، وأشعلوا النيران فى القصور ، ولم يتركوا فقيها ولا شيخا ولا وليدا إلا قتلوه . وكان فى عدة من قتلوا الشيخ الوقور سعيد بن المنذر امام المسجد الجامع ومروان بن حضير وابن الفردى قاضى أشبيلية . كما أحرقوا قصر ابن حزم أشهر علماء عصره ، وسبوا نساؤه . وفى الغداة ذهب سليمان المستعين بالله إلى قصر هشام المؤيد ، ودعاه للحضور بين يديه . فلما حضر أنبه على قبوله الخلافة بعد التنازل عنها . فاعتذر هشام بأنه مغلوب على أمره . وقبل سليمان عذره ثم قتله سرا بعد ذلك وجلس سليمان على العرش وبايعه الناس فى شوال سنة ٤٠٣ هـ وتلقب بالظافر مضافا إلى المستعين . وكان الظافر هذا أديبا بليغا وشاعرا مجيدا اشتهر برقة الغزل . فمن رقيق شعره :

عجبا يهاب الليث حد سنانى وأهاب لحظ فوائر الأجفان

لا تعذلوا مكا تذلل فى الهوى ذل الهوى عز وملك ثان
ما ضر انى عبدهن صبابة وبنو الزمان وهن من عبدانى
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى كلفا بهن فلست من مروان
وإذا الكريم أحب أمن أليفه خطب القلى وحوادث السلوان
وإذا تجارى فى الهوى أهل الهوى عاش الهوى فى غبطة وأمان

تتائج تلك الفوضى :

كان من الطبيعى أن تحدث تلك الفوضى النتائج المترتبة عليها . ومن المحتم أنها كانت لا بد أن تؤدى «أولا» إلى الوهن والتفتت فى ملك الاسلام «وثانيا» إلى إتاحة الفرصة للامراء المسيحيين لتحقيق أحلامهم القديمة

فانفصلت عن قرطبة ولايات كثيرة ، واستقل كل أمير أو حاكم بما تحت يده . فتفككت أواصر الوحدة وتمزق الملك الفسيح الى دويلات صغيرة . لكل منها أمير يصور له الغرور انه ملك كبير ، يصح أن يكون للمؤمنين أميرا ويحسده أمراء دويلته فيتواثبون على عرشه ويصارعهم ويصارعونه. فاذ استتب الأمر لأمير منهم طمع فى ملك جيرانه ، والكل يتزلف للامراء المسيحيين، يستنصرهم ويستعديهم على بنى ملته . فقام ابن عباد فى أشبيلية ، وابن ذى النون فى طليطلة وخيران العامرى فى بلنسية وابن الافطس ببطليوس ، وابن هود بسرقسطه ومجاهد العامرى بدانية ، وهؤلاء كلهم عرب . ومن البربر البرزالى فى قرمونة ، وباذيس فى غرناطة . أما الخليفة الأموي سليمان المستعين بالله فاقتصرت خلافته على قرطبة وباغة وثلاث مدن أخرى

وانتهز الأمراء المسيحيون الفرصة لزحزحة العرب جنوبا ونمت فى صدورهم أمنية طردهم الى أفريقية ،واعادتهم من حيث أتوا

استمرار الفوضى فى قرطبة :

أراد البربر أن يستمتعوا بما نهبوا ، فرغبوا فى السلام . كما تاقت نفس الخليفة سليمان المستعين بالله أيضا الى التنعم والاستمتاع ، فانصرف الى اللهو وكتابة الاشعار والتبحر فى الادب . ولكن الناس كرهوه إلى حد المقت . لانه كان فى نظرهم مغتصبا للعرش ، سفاحا ، وصل إلى ما وصل اليه على اشلاء قومه وأطراف بلاده الممزقة ، و بفضل المسيحيين والبربر

وترك المستعين جنوده يعيثون فسادا فى الأرض ، ولما طلب من أمراء الاقاليم الدخول فى طاعته هزأوا به وسخروا منه ، ودعوا فى مساجدهم لهشام الثانى المؤيد وهم لا يعلمون أنه قد مات غدرا بيد سليمان

الفصل الثالث

سقوط المستعين وقيام دولة بنى حمود :

كان هنالك من موالى بنى عامر بقرطبة زعيم صقلبى اسمه خيران . فلما اقتحم المستعين بالله قرطبة للمرة الثانية كان خيران يقاتل فى صفوف هشام الثانى المؤيد ، ولما غلب الصقالبة على أمرهم ارتدوا منهزمين ، وتفرقوا فى البلاد ، فاستولى خيران على المرية وأغار على البربر فى الجهات المجاورة لها ، فقوى أمره ودعى للخليفة هشام الثانى المؤيد

وكان من زعماء البربر الذين قادوا جند سليمان المستعين بالله عند ما اقتحم قرطبة أميران من الأدارسة يرجع نسبهما إلى الحسن بن على بن أبى طالب : وهما على ابن حمود الذى ولاه المستعين سبته وطنجه ، وأخوه القاسم حاكم الجزيرة الخضراء ولا يفصل امارتى الاخوين الا مجاز طارق . وكان على بن حمود أصغر الأخوين وأكثرهما طموحا . فتاقت نفسه إلى الاستيلاء على قرطبة وتطلع إلى الخلافة وشجعه على تحقيق أمنيته ما كانت فيه الخلافة الأموية الهزيلة من ارتباك وضعف. فتحالف مع خيران العامرى أمر المرية على اقتحام قرطبة واعادة هشام الثانى المؤيد إلى عرش الخلافة ان كان حيا ، والمناداة بنفسه خليفة ان كان هشاما قد توفى . ولما تم التحالف عبر على البحر من العدوة الافريقية إلى الاندلس ، واستولى على مالقة وانضم اليه حاكمها عامر بن فتوح . ثم سار الجميع الى قرطبة ولما كان على بحكم طول اقامة أسرته بالمغرب معدودا من قادة البربر ، فقد

انضم اليه فريق كبير من بربر قرطبة لشجاعته ونبله ، كما انضم اليه الامير زاوى حاكم غرناطة . وكلما أرسل سليمان المستعين جيشا من جنده البربر لمقاتلة على بن حمود وحليفه خيران ، تظاهر الجيش بالهزيمة وعاد من غير قتال . وأخيرا أشار عليه أحد أمراء جنده بأن يقود الجيش بنفسه واذا أراد الفوز . فلما عمل بهذا الرأى قبض عليه جنده وسلموه إلى على بن حمود الذى دخل قرطبة من غير مقاومة فى يوم الاحد ١٦ يوليه عام ١٠١٦ م — ٤٠٧ هـ

وكان أول ما عنى به خيران البحث عن هشام الثانى المؤيد . ولما لم يعثر له على أثر سأل عنه سليمان فى حضرة الوزراء والفقهاء ، فقال انه مات . وأمن على قوله أحد خدام هشام . ولكن هشاما لم يكن قد مات على ما يقال . وظلت حقيقة أمره سرا غامضا ، ولغزا مستغلقا . ويقال أن هشاما المؤيد بالله فر من سجنه أيام سليمان ، وظل مختبئا فى قرطبة مدة ، ثم اشتغل كعامل عادى ثم فر الى آسيا بعيدا عن متاعب الملك وهمومه

وهكذا كانت نهايته مأساة محزنة . ولما لم يثبت أن هشاما لايزال على قيد الحياة بايع الناس عليا بن حمود حسب ما اتفق عليه الخليفان من قبل وأمر على بقتل سليمان وأخيه وأبيه

خلافة على بن حمود وقيام النزاع بين الخليفين :

وحكم على البلاد حكما عادلا فقمع وحشية البربر ومنع السلب والنهب ، وحمى الشعب من الظلم ، وكان يستمع للشعراء ويحسن صلتهم .

وأحسن خيران الولاء للخليفة أول الأمر ، ولكنه لم يلبث أن قلب له ظهر المجن ، لما فشل فى الوصول الى ما وصل اليه المنصور محمد بن أبى عامر فى

عهد هشام الثانى المؤيد . وأخذ يحيك المؤامرات مع أمراء الأسرة الأموية وعمل جاهدا لاعادة الخلافة الى أمير من بينهم . ووقع اختياره على الامير عبد الرحمن الرابع بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر . فلقبه بالمرتضى ودعا العرب الى الالتفاف حوله واحياء عهد خلافتهم واسقاط خلافة البربر . فايقظ الفتنة النائمة ، وأثار العنصرية من جديد ، ولبى دعوته المنذر الهاشمى حاكم سرقسطة الذى زحف جنوبا ومعه حليفه ريموند المسيحى أمير برشلونة وانضم الى خيران كما انضم اليه كثير من أهل الاندلس . ولما تكشفت لعلى بن حمود حقيقة أمر من نصب نفسه لحمايتهم ورد الظلم عنهم ، ألقى بنفسه فى أحضان البربر وأطلق أيديهم فى معاملة أهل قرطبة كما يشتهون . وفرض ضرائب باهظة على الأهالى وصادر أوقاف المساجد بمقتضى فتوى من أحد الفقهاء المتزلفين واسمه ابن الجيار وعاد حكم الارهاب إلى المدينة التعسة مرة أخرى . ونشر على بن حمود عيونه فى المدينة ، حتى أصبح نصف الناس جواسيس على النصف الآخر . وفى نوفمبر عام ١٠١٧ م خرج لملاقاة أعدائه ، ولكن هطول الأمطار اضطره إلى أن يعود أدراجه

وفاة على بن حموده وولاية ابنه القاسم:

فى صبيحة يوم ١٧ أبريل عام ١٠١٨ م تفقده جنده فوجدوه قتيلا فى حمامه . قتله ثلاثة من موالى الأمويين ممن كانوا فى خدمته . وفرح أهل قرطبة لقتله ولكن البربر أقاموا مكانه ابنه القاسم ولقبوه بالمأمون . أما خيران وحليفه الجديد المنذر الهاشمى فقد بايعا بالخلافة عبد الرحمن الرابع المرتضى وزحفا على غرناطة لمقاتلة زاوى . ولكنهما كانا يبغيان من نصرته واحياء الخلافة الأموية ، أن يكون المرتضى شبحا يديران باسمه الأمور . فلما رفض أن ينزل لهما عن سلطانه

انضما إلى زاوي وانشق الحلفاء على أنفسهم ، فهزم المرتضى وفر إلى إحدى القرى القريبة حيث قتل . وكانت خيانة خيران سببا فى القضاء على الصقالبة ، إذ ضعفت شكوتهم وأصبح البربر أصحاب الحول والطول فى البلاد

وحكم القاسم حكما عادلا ، فأمن الخائف . ونشر السلام والهدوء ، وخفف الضرائب وتصالح مع خيران ، فجمع حوله القلوب . وظل كذلك حتى شك فى ولاء البربر فاستخدم جيوشا من العبيد الزنوج ليحلوا محل البربر مما أثار ثائرتهم

وانتهز هذه الفرصة ابن أخيه يحيى للعمل على اسقاط عمه ، فضم اليه البربر وعبر البحر من العدوة الافريقية إلى الاندلس ، واستولى على مالقة ، حيث انضم اليه أخوه باديس الذى كان حاكما عليها من قبل عمه القاسم

ولما اقترب يحيى من قرطبة فر منها القاسم إلى أشبيلية فى ١٢ أغسطس عام ١٠٢٢ م ودخل يحيى المدينة وما لبث أن انفض من حوله الزنوج والبربر ففر إلى مالقة وعاد القاسم إلى قرطبة فى فبراير عام ١٠٢٣ م

ولم يمض كبير وقت على ذلك حتى ثارت قرطبة مرة أخرى وطردت القاسم فهرب الى أشبلية ، ولكن أهلها أغلقوا أبواب مدينتهم دونه ، فسار الى مالقة وهناك قبض عليه يحيى وقتله

الفصل الرابع

محاولة إعادة الخلافة الأموية بقرطبة وظهور الميول الجمهورية :

أصبح على أهل قرطبة أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم . فعقدوا لذلك مؤتمرا فى نوفمبر عام ١٠٢٣م واقترح الوزراء اعادة الخلافة الأموية ، ورشحوا لذلك ثلاثة أمراء ولكن أحدهم وهو الأمير عبد الرحمن أخو الخليفة المهدى (محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر) استطاع أن يحيط نفسه يوم الانتخاب بنفر من ذوى الحناجر القوية الذين ملأوا الجو هتافا باسمه . فاضطر الوزراء أن يبايعوه كما بايعه جميع من حضر الجلسة بالمسجد الجامع ، فلقب نفسه بالمستظهر بالله واتخذ ابن حزم وزيرا له

عبد الرحمن الخامس المستظهر بالله :

اشتهر عبدالرحمن الخامس المستظهر بالله بغزله الرقيق كما اشتهر وزيره ابن حزم بالعلم والفضل ، فقد كان أكبر علماء عصره وأقدر كتاب الأندلس ، كما كان من أعظم شعرائها . ولكن عرش الأدب كان أسهل استبقاء من عرش الخلافة . وبخاصة فى بيئة مضطربة . فلم تمض بضعة أسابيع حتى قامت ثورة عمادها الغوغاء والعاطلون بزعامة محمد بن عبدالرحمن بن عبيدالله بن عبدالرحمن الناصر ، وانضم اليهم وجوه أهل قرطبة وحرس الخليفة . وانتهت الثورة بالقبض على المستظهر وقتله وتولية محمد بن عبدالرحمن وتلقيبه بالمستكفى بالله وهو أبو ولادة بنت المستكفى

الشهيرة . وقتل الوزراء جميعا ما عدا ابن حزم ، الذى انصرف بعد ذلك للبحث العلمى والتبحر فى الأدب

خلافة محمد بن عبدالرحمن المستكفى ووزارة أحمد بن خالد النساج:

اتخذ المستكفى أحمد بن خالد النساج صديقه الحميم حاجبا . فأغضب باختياره هذا وجوه الدولة وكبراءها وكان حكمه قصير الأمد . وتخبط فى كثير من الأخطاء وارتكب كثيرا من المظالم ، منها القبض على ابن حزم وابن عمه عبد الوهاب ابن حزم . فهرب من ظلمه بعض الكبراء ومنهم أبوعامر بن شهيد . ولجأوا إلى يحيى بن على بن حمود ، وطلبوا منه أن يضع حدا للفوضى الضاربة أطنابها فى قرطبة واستجاب لهم يحيى

ولم يكد يذاع فى قرطبة نبأ ما يجهزه يحيى من جنود للزحف عليها حتى ثار أهلها على النساج وزير المستكفى وقتلوه ، واضطر المستكفى إلى الفرار من قرطبة متخفيا فى زى امرأة مقنعة ، ولجأ إلى قريه على حدود قرطبة حيث دس له أحد أتباعه السم

التراوح بين إعادة خلافة بنى حمود أو اختيار خليفة أموى ثم الانتهاء إلى الجمهورية:

ظلت قرطبة ستة أشهر بلا خليفة وكان يحكمها مجلس من الكبراء . ولكن هذا النظام لم يكن مقبولا لدى أهلها الذين ألفوا الحكم الملكى طويلا . فاستقر الرأى أخيرا على عدم اختيار أمير من بنى أمية لأن التجربة قد اسفرت مرارا وتكرارا عن الفشل ، ووجوب اختيار أمير لديه جيش يكبح جماح الفوضى ، ويمنع الشغب ويقضى على السلب والنهب وسفك الدماء ، الذى مل منه الجميع . واتفق الناس

أخيرا على عرض الخلافة على يحيى بن على بن حمود أمير ملقه فقبلها ولكنه لم يكترث بها ، بل ظل مقيما حيث هو . وأرسل من قبله جنودا لاقرار النظام فى قرطبه

وأظهرت الحوادث بعد نظر يحيى . إذ مل أهل قرطبة حكم البربر ، فتآمروا مع زعيمى الصقالبة خيران العامرى أمير المريه ومجاهد العامري أمير دانيه على طردهم . وتم لهم ذلك بمعونة الجند الصقالبة المقيمين فى قرطبه . إذ فتحوا أبوابها للقوات التى أرسلها خيران ومجاهد . وباغت الجميع البربر وطردهم من المدينة .

وحاول مجلس كبراء المدينة إعادة الحكم الأموى . فاختار الوزير أبو الحزم ابن جهور الأمير هشام أخو الخليفة عبد الرحمن الرابع المرتضى بالله وتمت البيعة لهشام الثالث ولقب بالمعتمد بالله ولكنه كان إذ ذاك بعيدا عن قرطبه . فاستدعى اليها . وحال أمراء البلاد الواقعة على طريق قرطبه دون وصوله . وأخيرا وصل اليها عام ١٠٢٩

وسرعان ما خيب هشام الثالث المعتمد بالله ظنون أهل قرطبه فيه . إذ لم يكن على شيء من المقدرة ، كان ضعيف الارادة ، بليد الذهن ، عا كفا على اللهو . فترك مقاليد الأمور كلها فى يد وزيره الحكم بن سعيد . وأساء وزيره إلى الفقهاء و إلى الشعب بما فرضه من الضرائب ثم نافسه ابن جهور ، وعزم على اسقاطه واسقاط الخليفة معه . فاتفق مع مجلس الكبراء على خلع هشام الثالث واستطاع الأمير أميه إثارة الجنود الذين كانت أعطياتهم قد تأخرت . وفى تلك الثورة قتل الوزير الحكم بن سعيد عام ١٠٣١ م ونهب الجند قصر الخلافة ، ودخلوا مقاصير النساء فجردوها من كل ما فيها . واعتصم هشام الثالث ببرج عال ، واستغاث بأهل قرطبة فلم يغثه أحد ، وجلس أميه على عرش الخلافة مستعجلا

الحوادث ، كأن قد استتب له كل شيء . ولم يدر بخلده ما كان يرتب إذ ذاك في بيت ابن جهور

الغاء الخلافة و إعلان الجمهورية :

اجتمع مجلس الكبراء بدعوة من ابن جهور، وأخذوا يتشاورون فيما يضع حدا لتلك الأحداث الجسام . وأخيرا استقر رأيهم على الغاء الخلافة و إعلان انتهائها ولما اتفقوا على ذلك ركبوا ، وحولهم حراسهم ومواليهم وخدمهم والكل مسلحون إلى قصر الخلافة ، ونادوا بالكف عن النهب والسلب ، فرضخ الجند لأمرهم رهبة من تلك القوى المسلحة التي كانت تصحبهم أو اجلالا لمقامهم ، أو لأنه لم يعد هناك ما ينهب و يسلب أو لتلك الأسباب مجتمعة . ثم نادى الكبراء هشاما الثالث بالنزول من البرج ووعدوه بالأمان ، أن تنازل عن الخلافة . ولما نزل لهم عنها حبسوه هو ونساؤه في قبو مظلم بالمسجد الجامع . وفي المساء دعا الوزير ابن جهور أهل قرطبة الى المسجد الجامع للتشاور في أمر هشام الثالث ، فاتفق الحضور على اعتقاله في حصن من الحصون بلا امهال ، وكلفوا بعض شيوخهم بنقل هذا القرار إلى هشام . فلما ذهبوا إلى القبو لابلاغه قرار المؤتمر الشعبي شهدوه جالسا القرفصاء على الأرض ، وحوله نساؤه يبكين وهن في ملابس مهلهلة ، وقد احتضنته ابنته الصغيرة لتنشد الدفء من البرد الشديد ، وقد كادت الصغيرة المسكينة أن تهلك من الجوع . فكان أول همه قبل سماع رسالتهم أن يتضرع اليهم باحضار لقمة تتبلغ بها ابنته الجائعة

و بعد سجن هشام الثالث أعلن مجلس الكبراء انتهاء الخلافة ، وأن المجلس هو الحاكم الشرعي للمدينة . واتجه ابن جهور إلى قصر الخلافة حيث قبض على

أميه ، وأمر بنفيه إلى خارج حدود قرطبه حيث اختفى ولم يعد أحد يسمع عنه شيئا

أما هشام الثالث فقد فر من سجنه ، ولجأ إلى الأمير سليمان بن هود أمير لارده . وهناك أقام إلى أن توفى عام ١٠٣٦ م — ٤٢٨هـ و بعد خمسة أعوام كان فيها نسيا منسيا لا يحفل به أحد ، وتلك كانت خاتمة الخلافة الأموية بالأندلس

حالة قرطبة تحت الحكم الجمهورى :

آل الحكم فى قرطبة إلى مجلس شيوخها الذى عهد فى إدارة المدينة إلى الوزير أبى الحزم جهور بن محمد بن جهور ، يساعده عبد العزيز بن حسن ومحمد بن عباس فصلح حالها تحت إدارته ، إذ اتبع سياسة حازمة حكيمة ، فطرد البربر واستبدل بهم حرسا وطنيا ، وكان لايقطع أمراً إلا بمشورة المجلس ، ولم ينتقل إلى قصر الخلافة بل ظل فى منزله الخاص . وكان نزيهاً فى تصرفاته المالية ، فلم يبق خزانة الدولة فى بيته بل وضعها تحت اشراف نفر من أطهر الناس كفا ، وعقد معاهدات صداقة وحسن جوار مع الدويلات المحيطة بقرطبة ، فهدأت الفتن وعاد الأمن الى نصابه ، وتقدمت الصناعة وازدهرت التجارة ، وانخفضت أسعار الأقوات ، واتسعت قرطبة واستوطن بها كثير من وجوه من حولها من المدن ، وازدهر عمرانها ، وتجدد ما تخرب من مبانيها ولكن لم تعد اليها منزلتها السياسية التى فقدتها بفقد الخلافة

الفصل الخامس

حالة أشبيلية

انتقلت المنزلة السياسية التى كانت لقرطبة الى أشبيليه إذ كانت المدينتان مرتبطتان فى مصيرهما السياسى ارتباطا دام سنينا طويلة تحت الحكم الأموى ، ثم حكم بنى حمود ، فلما حدثت ثورة ١٠٢٣ م فى قرطبة حذت اشبلية حذوها وذلك ان القاسم بن حمود لما طرد من قرطبة فر منها إلى اشبيلية حيث كان له فيها جيش من البربر بقيادة محمد بن زيرى ، وكان بها ولداه حاكمين عليها وكان اهل اشبيلية قد قبلوه ملكاً عليهم خوفا من بطشه وقسوة جنده ، ولكن المثل الذى ضربته قرطبة فى امكان التخلص من البربر وطردهم شجع اشبيلية على محاكاته ، واستطاع قاضى اشبيلية أبوالقاسم محمد بن عباد ان يستميل اليه القائد محمد بن زيرى بان مناه بالحصول على عرش المدينة ثم عقد اتفاقا مع امير قرمونة ، و إذ ذاك تسلح أهل أشبيلية وانضمت اليهم حامية المدينة بقيادة ابن زيرى وحاصروا الجميع قصر ولدى القاسم . وفى ذلك الوقت وصل القاسم إلى أبواب أشبيلية لاجئا اليها من قرطبة فوجد أبوابها موصدة فى وجهه ، وأخيرا اتفق مع أهل اشبيلية على اخلائها وسحب حاميته منها نظير اطلاقهم ولديه والسماح له بنقل أمواله ومتاعه ، وهكذا أفلح ابن عباد فى تحرير أشبيلية من نير البربر وانقاذها من ظلمهم ، واكتسب تقدير أهل المدينة فطلبوا اليه أن يتولى حكمها فقبل ذلك ، واشترط أن يعاونه فى الحكم بعض ساداتها وكبرائها . وكان القاضى أبو القاسم محمد بن اسماعيل ابن عباد حازما بعيد النظر ، فاختار لمساعدته ابن الهوزانى وابن حجاج ومحمد ابن ياريم وأبا بكر الزبيدى . وهكذا قامت جمهورية ثانية فى اشبيلية بجوار جمهورية

قرطبة . وكان أول هم تلك الجمهورية الحصول على جيش يصد عنها غارات بنى حمود وجندهم البربر الممتلئين منها غيظا ، ولما كان ابن عباد موفور الثراء فقد استطاع أن يجتذب اليه خلقا كثيرا من العرب والبربر وغيرهم ، واشترى كثيرا من الصقالبة وأخذ يدربهم على فنون الحرب والقتال ، وغزا حصنين كانا للمسيحيين شمال أشبيلية واستولى عليهما ، وأصبح عنده خمسمائة من خيرة الفرسان . وفى عام ١٠٢٧ م حاصر أشبيلية الخليفة يحيى بن حمود و برابرة قرمونة بقيادة محمد بن عبد الله ، ولضعف أشبيلية رضيت بالخضوع للخليفة وقبلت سيادته الاسمية عليها وقدم ابن عباد ابنه رهينة على أن لا يدخل البربر المدينة ، فقبل يحيى ذلك واكتفى بدخولها فى طاعته ، و بعد ذلك بوقت قصير انفرد ابن عباد بالسلطة فى المدينة ، وعزل وزراءه ومد ممتلكاته إلى مدينة باجة فنازعه فى امتلاكها عبد الله بن الأفطس أمير بطليوس وابنه محمد الملقب بالمظفر ، وحاصر اسماعيل بن القاضى أبو القاسم محمد بن عباد مدينة باجة ومعه جيش من حلفائه بربر قرمونة واجتاح القرى التى حولها ، وهزم محمد بن الأفطس وقتل معظم جيشه وأسر ، وشجع هذا النصر ابن عباد ففزا اقليم بطليوس وقرطبة ، وبعد وقت قصير عقدت هدنة بين المتحاربين واطلق ابن عباد سراح محمد بن الافطس ١٠٣٠م و بعد ذلك بأربع سنوات انتقم ابن الأفطس من ابن عباد شر انتقام إذ سمح لجيش ابن عباد بقيادة ابنه اسماعيل باجتياز أمارة بطليوس فى طريقه إلى ليون ليغزوها ، و بعد دخوله فى منعطفات الطرق الجبلية وأدغالها هاجمة من الخلف فاوقعه بين نارين ، وأصبح المسيحيون من أمامه والبربر من ورائه . ففقد معظم جيشه وفر اسماعيل مع حفنة من رجاله ولاقى الأهوال حتى وصل إلى مدينة لشبونه أول حدود ملك أبيه

الفصل السادس

أعصبة الأندلسية

كان القاضي محمد بن اسماعيل بن عباد يدفع الجزية للخليفة يحيى بن على بن حمود و يحكم دولته فيما عـدا ذلك مستقلا ، ولـكن يحيى كان يجمع حوله أمراء البربر حتى أصبح زعيم العصبة الافريقية فى الجنوب الشرقى للاندلس ، واستولى على قرمونة واتخـذها مقرا له ، ومنها أصبح يهدد قرطبة واشبيلية معا . فادرك أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد عظم الخطر وحراجة الموقف ورأى بثاقب فـكره أنه لايدفع هذا الخطر إلا تكوين عصبة عربية أوربية عمـادها العرب والصقالبة ، فوضع أساس اتحاد عربى صقلبى يجمع شمل أعداء البربر الافريقين تحت رياسته . ولم تخف عليه وفرة المصاعب التى كانت تعترض تحقيق فـكرته إذ كان عليه ان يتغلب على شكوك الأمراء العرب والقواد الصقالبة ومجلس شيوخ قرطبة ، وان يخشى المسـاس بكرامتهم إذا حاول ان ينصب نفسه رئيساً عليهم ، ولـكنه لم يتهيب ولم يتردد وساعدته الحوادث بمجرياتها على تحقيق بغيته

وذلك أن الناس كانوا لا يزالون إذ ذاك يعتقدون أن الخليفة المنـكود الحظ هشاما الثانى (المؤيد) ما زال على قيد الحياة ، وأنه فر من قصر الخلافة مدة حكم سليمان المستعين بالله حيث انتقل إلى مكه وسرق بعض العبيد أمواله ، فعاش من صناعة الفخار ، ثم سار إلى بيت المقدس حيث احترف صناعة الحصر

ومنها عاد إلى الأندلس . سمع محمد بن اسماعيل بن عباد ذلك ، فانتهز الفرصة السانحة واستدعى إلى أشبيلية رجلا يشبه هشاما تمام الشبه واسمه خلف ، وكان يشتغل بصناعة الحصر وعرضه على نساء هشام ولما اعترفن بأنه هو الخليفة نفسه (وهذا الاعتراف لا يصح اتخاذه حجة) أعلن عودة الخليفة هشام الثانى إلى عرشه ، وأنه أصبح رئيس وزرائه ودعا الناس جميعا إلى حمل السلاح ، وأخبر مجلس الشيوخ فى قرطبة وأمراء العرب والصقالبة بذلك ، ودعاهم إلى حمل السلاح أيضا فى سبيل نصرته . ونجحت الخطة نجاحا محكما إذ اعترف به فى الحال محمد ابن عبد الله بن الأفطس أمير بطليوس ، وعبد العزيز أمير بلنسية ، ومجاهد أمير دنيه وجزر البليار ، وأمير طرطوشة ، واضطر ابن جهور الذى لم تجز عليه هذه الخدعة الى الاعتراف بهذا الخليفة المزيف ، وأخذ البيعة له لما رآه من تحمس الشعب بقرطبة لعودة خلافة هشام ، ولما كان يعلمه من الخطر الداهم الذى يتهدد قرطبة من ازدياد سطوة البربر . واذ ذاك كان يحيى يحرق الأرم لنجاح مسعى ابن عباد ، فصب جام سخطه عليه بأن غزا أشبيلية ، وأخذ يخرب ما حولها ولكنه كان محاطا بشرذمة من الخونة الذين أخبروا قاضى أشبيلية سرا بأن سيدهم يسهل أسره اذا بوغت فجأة ، لأنه قل أن يصحو من سكره فخرج اسماعيل بن الأمير أبى القاسم محمد وهاجم قرمونة بعد أن أعد كمينا ليحيى ، ولما سمع يحيى صراخ جند أشبيلية ترك مجلس الشراب واندفع بنزق وراءهم ومعه فريق من خيرة فرسانه فوقع فى الكمين وقتل . وقتل معظم أتباعه ، وفر الباقون ودخل محمد بن عبد الله أمير قرمونه السابق قصر يحيى وسبى نساءه فى نوفمبر ١٠٣٥ م ، واقتسم هو وأولاده أمواله وقوبل نبأ قتل يحيى فى قرطبة واشبيلية بفرح شديد يفوق حد الوصف ، اذ كان فى هذه الهزيمة القضاء على دولة بنى حمود

وزوال خطرهم . نعم ان خلافة يحيي بن حمود انتقلت من بعده الى اخيه ادريس أمير ملقه ، ولـكن ابن عمه محمد امير الجزيرة الخضراء نادى بنفسه خليفة ايضا ونازعه السلطة . ولـكن هذا لم يجد ابا القاسم نفعا فى ادراك بغيته وتحقيق مطامعه فلما اراد اجلاس الخليفة هشام المزعوم فى قصر الخلافة بقرطبة واقامة نفسه نائبا عنه ظنا منه ان الفرصة مواتية لاتمام مهزلته تصدى له ابن جهور ، واظهر لأهل قرطبة أن الخليفه المزعوم انما هو شخص دعى مزيف وحذف اسم هشام الثانى من الخطبة ، ولما وصل القاضى الى ابواب قرطبةوجدها موصدة فى وجهه فاضطر الى الرجوع بخفى حنين لقلة من كان معه من الجنود . والى تحويل أنظاره إلى زهير أمير المريه ، وكان زهير قد رفض الاعتراف بخلافة هشام الثانى ، وانضم إلى بنى حمود معترفا بخلافة ادريس ، وحالف حبوس أمير غرناطة لمـا رأى الخطر يتهدده من ناحية أشبيلية . ولمـا التقت جنود القاضى أبى القاسم بجنود المريه وغرناطة دارت الدائرة على أبى القاسم فعاد إلى أشبيلية مرة أخرى يجر أذيال الفشـل ، وأصبح همه أن يخلص نفسه من هجوم جيش غرناطه والمريه على بلاده ، ولـكن تقلبـات الحوادث أنجته من عدوه من حيث لا يحتسب ، إذ وقع الحليفان فى بعضهما ، فتنفست اشبيلية الصعداء ، وتفـككت عرى الوحدة البربرية وخلت أمارة المرية ، وسنحت الفرصـة لعبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور أمير بلنسية فاسترد المرية وضمها الى ملـكه

وسبب الوقيعة بين الحليفين ان كـان لـكل منهما وزير يمقت الآخر اشد المقت . فبعد وفاة حبوس تولى ابنه باديس واتخذ اليهودى صمويل واسمه هاليفى وزيرا له ، وكان نادرة زمانه فى الشعر والفصاحة والذكاء والدهاء وبعد النظر والتجرد من الصلف والغرور ، اما وزير زهير فكان ابن عباس الذى اشتهر بوفرة

غناه (وقدرت ثروته بما يعادل مليونا ونصف مليون من الجنيهات) وبخله وبراعته فى نظم الشعر كما عرف بكبريائه وغروره ، وكان عربى الأصل جميل الصورة رفيع الحسب يرجع نسبه إلى الأنصار ، وكان يكره البربر ويحتقر اليهود ، فكانت كراهية كل من الوزيرين للآخر سببا فى انقلاب الخليفين الى عدوين . وتصادف ان زار زهير خليفه باديس فى قرطبة ودارت بينهما مخابرات بشأن تجديد التحالف ولكن صلف ابن عباس كان سببا فى اغضاب امراء البربر فانتهت المفاوضات بالفشل ، وقفل زهير راجعا ، وفى عودته كان البربر قد احتلوا مسالك الجبال وسدوها عليه ، وخانه حرسه السود فانضموا الى البربر الذين هاجموه وشردوا رجاله فى الفجاج ، فمنهم من قتل ومنهم من سقط من شاهق اثناء هربه فدقت عنقه وتناثرت اشلاؤه ، وكان من بين هؤلاء الأمير زهير نفسه اما الوزير ابن عباس فوقع فى يد باديس اسيرا فامر بسجنه فى الحمراء مثقلا بالاصفاد ، ولم يقبل منه فدية بل استقر رأيه على قتله فطعنه بحربة فى صدره وتبعه أخوه وحاجبه ، ولم يمت أبو العباس إلا بعد أن تلقى سبعة عشرة طعنة أسلم بعدها الروح فى سبتمبر ١٠٣٨ م

وكان قتل باديس لزهير صدمة كبرى للعصبة العربية إذ استراح بال القاضى أبو القاسم وأصبح قادرا على توجيه جهوده ضد عصبة البربر ، مبتدئا بامارة قرمونة كما دبر مؤامرة فى غرناطه ضد أميرها باديس بزعامة مغامر عربى اسمه أبو الفتوح أصله أديب متضلع فى علم الفلسفة والفلك والشعر ، وفد على الأندلس يطلب صلة أمرائها ، فأتمر بباديس وحرض ابن عمه يزير على الثورة ، ولكن باديس كشف التدبير وعجل بالقبض على المتآمرين ، وتمكن زعماؤهم من الهرب لاجئين إلى أبى القاسم الذي كان المحرك الأكبر لهم فيما فعلوا . وظن القاضى أن الوقت قد حان لمهاجمة قرمونة ، فارسل جيشا بقيادة ابنه اسماعيل للاستيلاء عليها فانتصر

فى عدة مواقع ، وحاصر مدينة قرمونة ، فاضطر أميرها محمد إلى الاستنجاد بادريس خليفة مالقة و باديس أمير غرناطة ، فلبيا نداءه أما ادريس فارسل جيشا بقيادة وزيره ابن بقانه ، وأما باديس فقاد جيشه بنفسه ، ولـكن جيش اسماعيل كان يفوق جيشهما فى كثرة العدد . فاضطرا إلى الفرار عائدين كلا الى بلده ، وتبعهما اسماعيل بجيشه ولـكن جنده استهانوا بالأعداء المنهزمين ، وتفرقوا فى الطريق فهاجمهم البربر هجوما عنيفا أوقع الهزيمة فى صفوفهم ، وقتل اسماعيل وعاد ابن بقانه الى مالقة و باديس الى غرناطة ، وهناك وفد عليه أبو الفتوح مستغفرا لذنبه لما علم ان باديس قد أمر بسجن زوجته وأولاده ، فـكانت عودته هى القاضية عليه اذا أمر باديس بسجنه ثم قتله بيده فى أكتوبر ١٠٣٩ م

الفصل السابع

مملكة البربر فى مالقة أو خلافة بنى حمود :

كان ملوك هذه الدولة ضعافا قنعوا بالسيادة على مالقة وطنجة وسبته ، واعترف بخلافتهم اعترافا واهيا باديس أمير غرناطة ، و بينما كان باديس لايثق إلا بالبربر أو بوزير يهودى كصموئيل يخلص كل الاخلاص لمصلحة الدولة كان بلاط ادريس مملؤا بالصقالبة والبربر ومفعما بالدسائس والمنازعات ، وهى بعينها أسباب سقوط ملك بنى أمية ، وتجلى الانقسام بعد وفاة ادريس الاول إذ تنازع السلطة الوزير ابن بقانه المغربى ونجاء الصقلبى ، وأراد ابن بقانه أن يولى الخلافة يحيى ابن ادريس ولكن نجاء نادى بخلافة الحسن بن يحيى ابن عم الأمير يحيى ، وعبر البحر إلى مالقة باسطول كبير ، فلما رأى ابن بقانه شدة باس خصمه أخلى الميدان وفر هاربا ومعه أميره يحيى فاحتل نجاء القصبة ، ووعد ابن بقانه بالصفح ان هو استسلم ولكنه قتله بعد استسلامه ، ثم قتل الأمير يحيى بن ادريس بعد ذلك ، ومع أن القتل كان على غير رغبة الامير الحسن إلا أن زوجة الحسن وهى اخت الامير يحيى المقتول دست السم لزوجها انتقاما لأخيها فمات ، و بعد ان قتل نجاء ابناء للحسن وسجن الأمير ادريس اخى الحسن نادى بنفسه خليفة على مالقة ، وصبر عليه البربر اول امرهم فبايعوه ، وبيتوا النية على ان ينكبوه فى اول فرصة لقتله اثنين من ابناء رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يكن نجاء على علم بما يدور فى خلدهم ، فتجهز لاخضاع الجزيرة الخضراء وكان اميرها محمد من بنى حمود ،

وأنس من البربر اعراضا عن القتال وفتورا فى النزال فقفل بجيشه راجعا إلى مالقة لينظر فى أمره ، وفى طريقة اليها انقض عليه جنده وقتلوه فى فبراير ١٠٤٣ م

و بينما كان البربر يصيحون فرحا لقتله ، والصقالبة يحملون متاعهم هاربين خشية أن ينالهم ما نال زعيمهم أسرع اثنان من البربر إلى مالقة وحملا إلى أهلها النبأ السار فأخرج أهلها الأمير إدريس من سجنه ونادوا به خليفة عليهم . ولم يكن ادريس الثانى كفءاً لتولى الخلافة رغم حسن طويته وجوده ، ومما يدل على تسلط الخرافات على عقول البربر أنهم كانوا يزعمون أن أمراء بنى حمود مقدسون لنسبتهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه لا يجوز النظر اليهم أو التحديق فيهم ، فكانوا لايخاطبون الناس إلا من وراء ستار ، ولكن ادريس الثانى كان لايتمسك بهذه التقاليد تساهلا منه فقد حكى أن شاعره أبا زيد عبدالرحمن أنشده قصيدة منها

وكأن الشمس لما أشرقت ... فانثنت عنها عيون الناظرين
وجه ادريس بن يحيى بن على ... بن حمود أمـــير المؤمنين
خلقوا من ماء عدل وتقا ... وجميع الناس من ماء وطين
أنظروا نقتبس من نوركم ... إنه من نور رب العالمين

فأمر ادريس برفع الستر ، وكان إدريس الثانى ضعيفا خائر العزيمة يدل على ذلك أنه كان لايقوى على رفض طلب باديس ، أو أى أمير آخر إذا ما طمع فى حصن من حصون بلاده أو فى قتل رجل من رجاله ، ويقال أن باديس غضب مرة على وزير من وزراء إدريس الثانى فطلب تسليمه اليه فلم يستطع ادريس أن يرفض هذا الطلب

وأبدى للوزير أسفه وألمه ، لما قد يلقاه من سوء المصير ، ثم أمره بالذهاب الى باديس فذهب اليه وقتل ، فسخط البربر لضعفه المتناهى ، وثاروا عليه بقيادة أحد عماله ، وأخرجوا الأمير محمد ابن عمه ونادوا به خليفة ، وأراد أهل مالقة أن يحموا أميرهم وخليفتهم ادريس الثانى ، وأن يقوموا فى وجه البربر ، ولكنه رفض أن يسلحهم ليدافعوا عنه ، ولم يقبل أن يسفكوا قطرة دم فى سبيله ، وهكذا تم لمحمد دخول مالقة حيث تولى الخلافة وذهب الأمير ادريس الثانى إلى السجن

وكان الخليفة الجديد على عكس سلفه تماما اذ كان مندفعا فى شجاعته وجرأته ، لا يتسامح فى مخالفة النظام ، شديد الوطأة فى حكمه

فلما تبين للبربر والزنوج من جنده حقيقة أخلاقه ندموا على ما كان منهم وتآمروا على اطلاق سراح ادريس الثانى ، ورده الى عرش الخلافة ، وفى هذه المرة لم يتردد ادريس فى قبول ايقاد نيران الفتنة والحرب الاهلية ، فى سبيل الحصول على حريته والعودة الى عرشه

ولكن محمدا قاوم الثوار ، حتى أجبرهم على التسليم ، وقبل أن يسلموا كانوا قد تمكنوا من تهريب ادريس الى افريقية ، حيث ظلت خلافته قائمة فى طنجة وسبته وذكر اسمه فى الخطبة ثم خشى حاكم طنجة وحاكم سبتة أن ينزع الخليفة السلطة من أيديهما فارسلاه إلى اسبانيا حيث لجأ الى حاكم مدينة رونده وكان من البربر ، وفى ذلك الوقت أعلن أمير الجزيرة الخضراء نفسه خليفة ، وكان اسمه محمدا أيضاً فأصبح بالأندلس أربعة خلفاء فى وقت واحد هم هشام الثانى المزعوم فى اشبيلية ، ومحمد فى مالقة ،

ومحمد فى الجزيرة الخضراء ، وادريس الثانى فى روندا وكان أمير الجزيرة الخضراء أول من أخلى الميدان إذ تخلى عنه أنصاره ففر إلى المغرب ومات مجللا بالعار عام ١٠٤٨ م ، ومات من بعده محمد أمير مالقة عام ١٠٥٤ م ، وعاد الى تولى الخلافة فيها ادريس الثانى ، وظل يحكمها حتى سنة ١٠٥٥ م ، حين توفى وعندئذ أصبح باديس زعيم العصبة البربرية غير منازع فضم اليه اقليم مالقة وقضى على بنى حمود ونفاهم إلى المغرب .

الفصل الثامن

عود إلى مملكة أشبيلية

المعتضد ابن أبى القاسم :

لما توفى القاضى أبو القاسم فى يناير ١٠٤٢ م ، قام بالأمر من بعده ابنه عباد ولقب بالمعتضد ، واستمر يدعى أنه حاجب الخليفة هشام الثانى ، وأصبح المعتضد زعيما للعصبة العربية الأندلسية ، وكفأ للوقوف أمام باديس زعيم البربر يبزه فى خصاله خيرها وشرها ، لا يؤمن جانبه ، يميل إلى الانتقام غادرا سفاحا شريرا ظالما قاسيا ، يدمن الخمر وينغمس فى الشهوات ، جمع فى قصره ٨٠٠ من النساء فكان يشبه خصمه كل الشبه فى نواح متعددة ، ويختلف عنه فى سعة اطلاعه وغزارة علمه وثقافته ورقة طباعه

وكان المعتضد نصير العلم والأدب يجزل صلة الشعراء ويكثر من تشييد المبانى ويتشبه بخلفاء بغداد ، وكان حبه للانتقام متغلغلا فى أعماق نفسه ، فلا يعفو ولا ينسى ، ولا يكتفى بقتل أعدائه بل يتشبه بالخليفة المهدى الأموى فى اتخاذ جماجمهم أوعية للزهر فى باحات قصره ، وعلى كل جمجمة اسم صاحبها ، ومع هذا كان يعد نفسه ريحانة الملوك وقدوة الامراء فى العدل والحلم والكرم ، وينشد ذلك عن نفسه فى أشعاره وقصائده

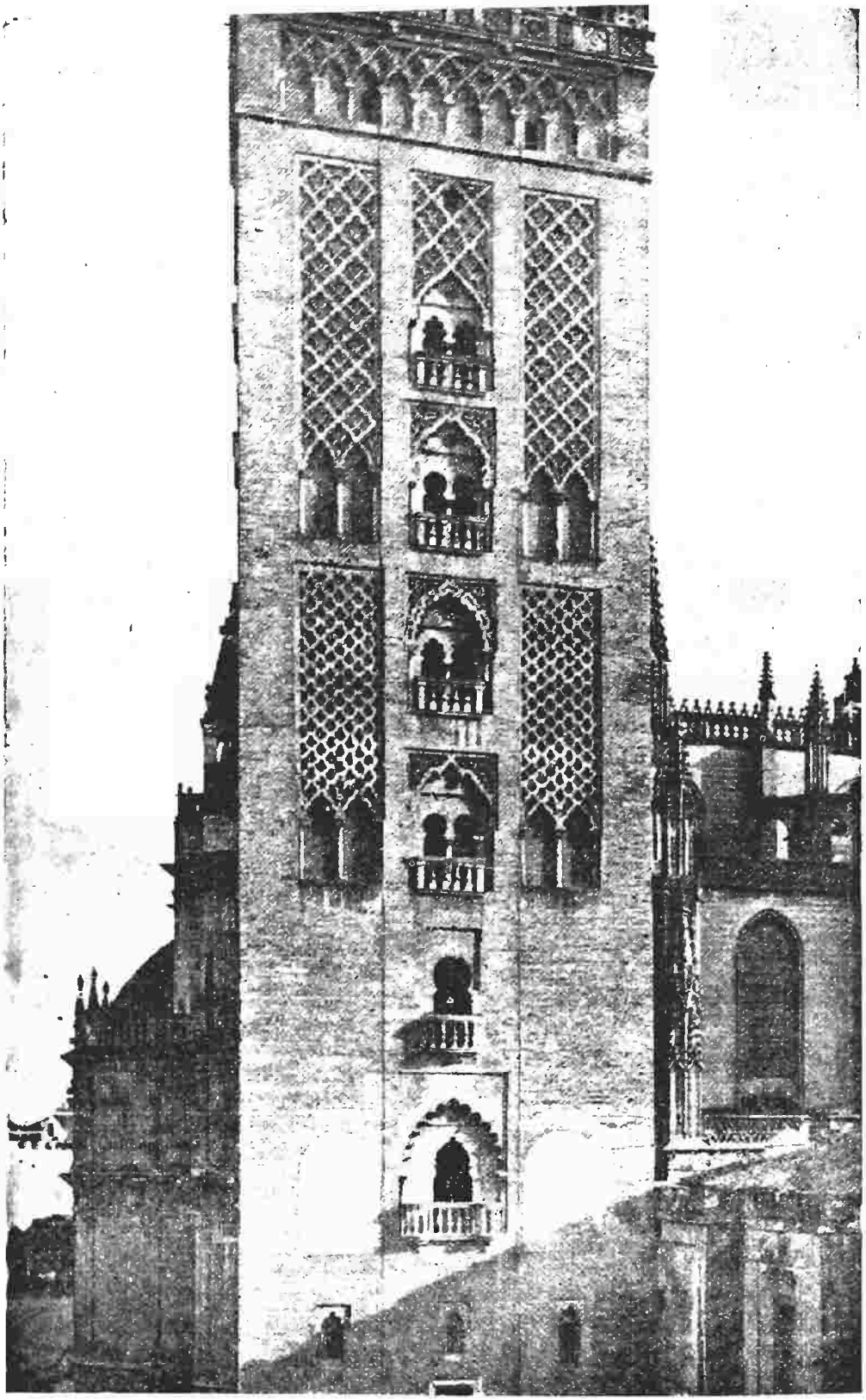

منارة المسجد الجامع باشبيلية

حروبه :

اشغل المعتضد نيران حروب طويلة مرهقة مع جيرانه ، وكان أول ما بدأ به حكمه أن قتل حبيب وزير أبيه ، ثم هاجم أمارة قرمونة وكان اميرها من البربر فنزاها عام ١٠٤٢ م لأن المنجمين أنبأوه أن سقوط أسرته وزوال نعمتها انما يكون على يد قوم غرباء عن الأندلس ، فاصبح لا يهنأ له عيش طالما كان للبربر فى الأندلس ملوك ودول ، وتمكن المعتضد من هزيمة محمد أمير قرمونه وايقاعه فى كمين أدى إلى قتله عام ١٠٤٣ م ولكن الحرب استمرت مستعرة بين المعتضد وبين اسحق بن محمد . ومد المعتضد حدود مملكة اشبيلية غربا فانتزع امارة ابن طيفور ثم هاجم امارة نيبلا العربيه فاضطر أميرها أن يلجأ إلى المظفر أمير بطليوس (وهو من البربر) فكون المظفر حلفا من محمد بن حمود خليفة مالقة ومحمد خليفه الجزيرة الخضراء ، وباديس أمير غرناطه وعبد الواحد بن جهور الذى خلف أباه فى رياسة جمهورية قرطبة ١٠٤٣ م ، واستمرت الحرب سجالا ، وأخيرا دارت الدائرة على الحلفاء قرب قرمونه ، وقتل أمير قرمونه وانهكت قوى بطليوس وعمها الفقر والبؤس ، وتفرق عن المظفر أميرها كل حلفائه ، وأخيرا توسط عبد الواحد بن جهور فى الصلح ، ووفق إلى عقد معاهدة بين الطرفين عام ١٠٥١ م ، وبعد عقد الصلح هاجم المعتضد امارة نيبلا واستولى عليها ، وفر أميرها إلى قرطبة واستولى على امارات أخرى غيرها ثم رأى أن ملكه قد امتد غربا كما كان يشتهي ، فاتجه بجيوشه جنوبا لمناوشة امارات البربر التى كانت خاضعة له خضوعا اسميا تدعو للخليفة المزعوم هشام الثانى على منابرها وتؤدى له الجزية ، ولكن المعتضد لم يكتف بهذه السلطة الوهمية بل أراد استئصال شأفة البربر ، ودبر لذلك خطة جريئة ماكرة ، فزار أمارتى رونده ومارونا ، وكشف هنالك كراهية العرب للبربر

فاتفق مع كثير من زعماء العرب و بعض الخونة من القواد البربر على الثورة ، وأمدهم بالأموال وشجعهم ثم أجزل الصلات لمضيفه وعاد الى أشبيلية عام١٠٥٣م وبعد ذلك بستة أشهر دعا امراء وكبراء روندا ومارونا الى ضيافته فى اشبيليه ثم أدخلهم الحمام وأمر البنائين باحكام رتاج الباب وبناء الأحجار فى فتحته ، ثم سلط عليهم الحرارة فاختنقوا وماتوا وكان عددهم يناهز السنين أميرا ، ثم أرسل جيوشه لاحتلال اماراتهم ، فكانت مهمتها سهلة ممهدة إذ عاونها العرب من السكان ، ومن رشاهم المعتضد من الخونة ، وهكذا استطاع المعتضد أن يضم اليه أمارات البربر الجنوبية ويحصنها تحصينا منيعا

حقد باديس :

إستاء ملك غرناطة لقتل الأمراء البربر بهذه الطريقة الوحشية ، وكاد ينفجر من الغيظ ، خصوصاً لما بلغه ما كان من ثورة العرب فى إمارة روندا ومارونا ضد البربر وذبحهم إياهم عن آخرهم ، إذ خشى أن يثور عليه العرب من رعاياه أيضاً اقتداء ببنى جلدتهم ، فصمم على استئصال شأفة العرب فى غرناطه ولكن وزيره صموئيل اليهودى نهاه عن ذلك ، وأفسد تدبيره لما توقعه من وخامة العاقبة ، فعزم على مهاجمة أشبيلية وقاد الجيش بنفسه ، ولكنه صد عنها مهزوما لأن جيش أشبيلية قاتل بحماس لايوصف ، واعتبر حرب غرناطة جهادا فى سبيل الله لأن وزير الدولة كان يهوديا

تشجع المعتضد بعد هذا الانتصار ، فهاجم الجزيرة الخضراء لأن أميرها القاسم الحمودى كان من أضعف أمراء البربر ، واستولى عليها وخرج أميرها لاجئا إلى قرطبه عام ١٠٥٨م ولما عاد المعتضد إلى أشبيلية وضع حدا لمهزلة خلافة هشام الثانى ، وأعلن أمام وزراء الدولة ووجوهها أن الخليفة قد مات ١٠٥٩ م وأذاع نبأ وفاته فى طول

البلاد وعرضها ، ودعا الأندلس إلى اختيار خليفة جديد ولما لم يلتفت لدعوته أحد أدعى أن الخليفة المزعوم قد أوصى له بالخلافة (قبل وفاته) وأنه أصبح أمير الأندلس كلها وعزم على الاستيلاء على قرطبة عاصمة الأندلس ، ولكن صدمه القدر صدمة قاسية أفقدته صوابه

ذلك أنه أرسل ابنه الأمير اسماعيل على رأس جيش صغير للاستيلاء على اطلال ضاحية الزاهرة بينما كان هو يخرب ضواحى قرطبة ، فتباطأ اسماعيل ثم طمحت نفسه للحصول على امارة الجزيرة الخضراء والاستقلال بها ، فعاد مسرعا إلى أشبيلية واقتحم القلعة وحمل أموال أبيه وعددا من نساء القصر ومعهم أمه ، ثم اسرع بالذهاب إلى الجزيرة الخضراء ، ولكن رسل أبيه كانوا قد أخبروا حكام المدن والحصون أن يكونوا على حذر واستعداد فلم تفلح مغامرة اسماعيل ، ووقع أسيرا فى يد أبيه ، وذبحه أبوه بيده انتقاما منه ، وصب جام سخطه على كل أصدقائه وخدمه ونسائه فنكل بهم أشنع تنكيل . وكان لعظم الصدمة وقع شديد فى نفس المعتضد حتى أنه نسى مطامعه فى قرطبة وظل جرح قلبه داميا لا يندمل

استيلاؤه على مالقه :

كان عرب مالقه يئنون من جور أميرهم باديس فاستجاروا بالمعتضد لأنه عربى مثلهم ، وأسرع المعتضد إلى نجدتهم ، وفى اليوم المعين ثار عرب مالقه وما حولها من الحصون ، واجتاز جيش المعتضد الحدود بقيادة ابنه المعتمد فسقطت الحصون فى يده سراعا ، وحصر البربر بين نارين فقتل معظمهم وفر

الباقون ، ولم يمض أسبوع حتى كانت امارة مالقه فى حوزة المعتضد ماعدا العاصمة نفسها لمناعة حصونها ، واستعانة الزنوج من حاميتها في الدفاع عنها

وأشار الثوار العرب على حليفهم المعتمد بن المعتضد أن لا يأمن البربر من جنده ، وأن يكون حذرا دائم اليقظة ، وأن يشدد الحصار على حصون مالقه ولكنه اغتر بما ناله من فوز وأهمل نصيحتهم وانصرف إلى لهوه وشرابه ، فكانت النتيجة أن أسرع باديس بمهاجمه أعدائه بغتة وهزمهم شر هزيمة وطردهم من حول العاصمة ، واسترد بلاد الامارة كلها وفر المعتمد إلى رونده ، وهكذا فقد المعتضد من جراء اهمال ابنه جيشا وامارة بأسرها ، وانتقم باديس من الثوار العرب ، فنشر الفزع والهلع ووضع السيف فى رقابهم والنار فى ديارهم . وفى تلك الأثناء توفى صموئيل وخلفه فى الوزارة ابنه يوسف ولكن البربر ثارت ثائرتهم أخيراً لكبريائه وصلفه فهاجموه وقتلوه وقتلوا معه أربعة آلاف من يهود غرناطه فى ديسمبر عام ١٠٦٦ م

وفاة المعتضد :

لم تكن الحال فى بقية أنحاء الأندلس الاسلامية على مختلف أماراتها وأقسامها بأقل اضطرابا وتطاحنا وانقساما مما رأيناه فى امارات جنوب الأندلس فالكل كان يتطاحن ويتناحر على اقتطاع شطر من ملك الخلافة الأموية . فلا غرابة وقد عمت الفوضى بلاد المسلمين أن يظهر بين مسيحى الشمال من يجمع شملهم ويؤلبهم على طرد المسلمين وانتزاع املاكهم جزءا بعد جزء

والظاهر أن ملوك الأمارات المسيحية الشمالية سرت فيهم عدوى الإنقسام أيضا أول الأمر فظلوا فى تطاحن وشقاق زهاء نصف قرن ، ولكنهم برئوا من

علتهم بعد ذلك وتمخضت الحروب الأهليـه بينهم عن ظهور بطل قوى هو فرناندو الأول ملك قشتالة وليون ، الذى وحد كلمتهم عام ١٠٥٥ م وقاد جموعهم ضد أعدائه المسلمين المنشقين على أنفسهم ، و بسم الحظ أخيرا للمسيحيين وحانت ساعة زحزحتهم المسلمين عن موقفهم ، وكان جيش فرناندو يقاتل مدفوعا بنزعة دينية وحماس وطنى ، فانتزع من المظفر أمير بطليوس معظم امارته ، ومن بينها العاصمة عام ١٠٥٧ م ثم دخل امارة سرقسطة ، وانتزع الحصون الواقعة جنوب نهر دورو ، وأغار على إمارة المأمون فى طليطلة ، فأسرع المأمون بتقديم الطاعة والهدايا الثمينة وكانت قدراً وفيرا من الذهب والفضة والجواهر ، وتعهد بدفع جزية سنوية وكان هذا بدأ الانقلاب إذ اصبح المسلمون هم الذين يدفعون الجزية للمسيحيين ثم أتى دور المعتضد ، ففى ١٠٦٣ م احرق فرناندو القرى المجاورة لاشبيليـه ، ومع ان المعتضد كان اقوى ملوك الأندلس المعروفين بملوك الطوائف ، الا انه اضطر مكرها الى ما اضطر اليه المأمون ملك طليطلة ، فزار معسكر فرناندو وقدم الهدايا ورجاه ان يرجع عن بلاده ، بعـد أن تعهد بدفع الجزية وتسليم رفات القديسة يوسطا احد شهـداء العصر الرومانى . وهكذا ظهر ضعف المسلمين وهوانهم على المسيحيين ، وفى ١٠٦٤ م نكب المسلمون بكارثة عظمى إذ سقطت كومبرا فى يد فرناندوا الذى نفى المسلمين من أهلها ثم حاصر بلنسية وكان يحكمها الأمير عبد الملك بن عبد العزيز ، ولما رأى المسيحيون مناعة حصونها تظاهروا بالتقهقر عنها فخرج اهل بلنسية لمطاردتهم ، فانقض عليهم المسيحيون فيما بين بلنسية ومرسيه . وقتلوا معظم المسلمين . وفر عبد الملك هاربا ولم يكف المسلمون ما يلقونه من ويل على ايدى مسيحى اسبانيا ، بل فوجئوا بغارة النورمنديين على شمال شرق الأندلس بقيادة جو يليوم دى منتروى ، واستيلائهم على بلنسية ،

ثم على حصن للمسلمين بين لاردة وسرقسطة واسمه باربباستروحيث قتلوا حاميته بعد ان تعهدوا باحترام حياة افرادها كما قتلوا المسلمين ، واقتسموا فيما بينهم بيوت المسلمين بما فيها من نساء وأطفال ومال ومتاع ، وارتكبوا من الفظائع ما تقشعر من هوله الأبدان ، ثم ارتحلوا عائدين إلى بلادهم مثقلين بالاسلاب ، فاستولى المقتدر امير سرقسطه على ذلك الحصن مرة اخرى واسترد عبد الملك بلنسية ، ولم يكد يستقر فيها حتى عاد اليها فرناند ، ولما اشتد عليه المرض فيها تركها عائدا إلى بلاده ، فضمها المأمون امير طليطلة إلى ملكه ، وانقذ الموت المسلمين من ألد اعدائهم فرناند حيث توفى عام ١٠٦٥ م ومن بعده بوقت قصير توفى المعتضد عام ١٠٠٩ م فخلفه ابنه المعتمد

المعتمد :

ولد المعتمد عام ١٠٤٠ م ودربه أبوه على ادارة شؤون الدولة ، وفى حياة أبيه توطدت الصداقة بينه و بين رفيق صباه الشاعر المجيد ابن عمار ، فادخله فى خدمته ولما تولى الملك بعد أبيه عام ١٠٦٩ اتخذه وزيرا له بعد أن كان مسترفدا ، فصاراه التكسب بالشعر لايخص بمدحه الملوك دون غيرهم ، بل لا يبالى ممن أخذ ولامن استعطف من ملك أوسوقة . وأصبح المعتمد يعد ابن عمار لكل أمر جليل و يؤهله لكل رتبة عالية ، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى البرمكى مع الرشيد وتزوج المعتمد من بين نسائه جارية اسمها اعتماد المعروفة بالرميكية ، وكانت آية عصرها فى الذكاء واللباقة والجمال والفصاحة حتى لتعادل ولادة بنت المستكفى ، ولما كان المعتمد ووزيره ابن عمار من فحول الادباء ومجيدى القريض فقد اعتزت بهما دولة الادب والشعر .

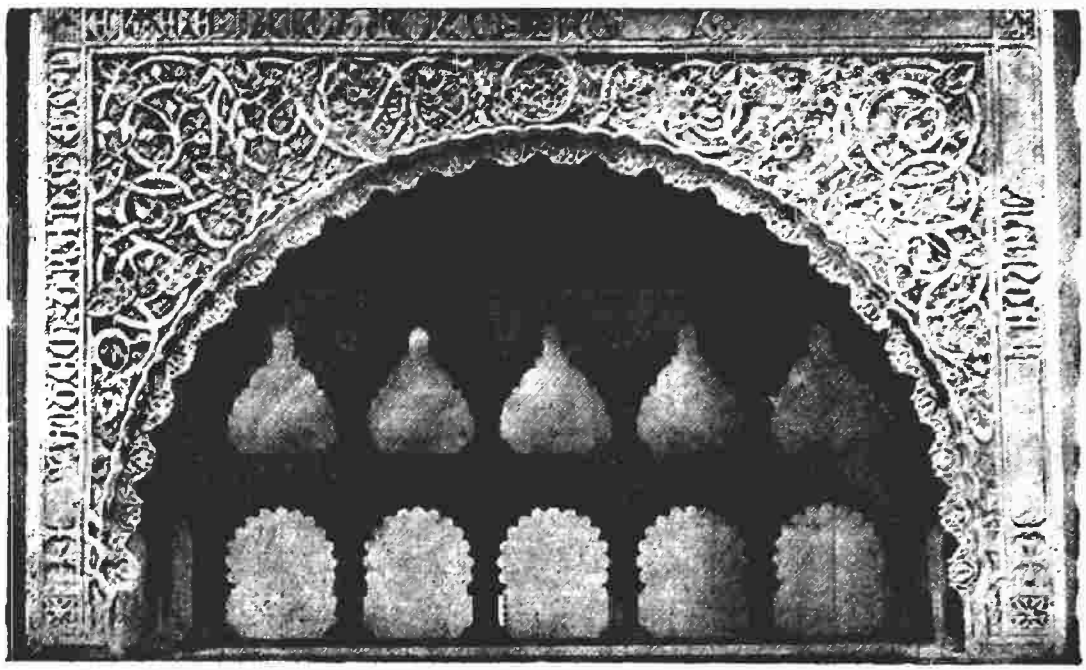

خشب منجور من طليطلة

وأصبحت أشبيلية كعبة الشعراء ومتجع الأدباء من كافة بلاد الاندلس ، وكان المعتمد يحسن صلة الشعراء المجيدين و يجزلهم ، ونحن يحسن تقدير مواهب الرجال حتى ولو كانوا لصوصا ، تدل على ذلك قصته مع كبير اللصوص الصقر الرمادى الذى عفا عنه المعتمد ، وعينه رئيسا لشرطته ، وله شعر كثير يحكى الماء سلاسة والصخر ملاسة ، وأولع المعتمد بالشراب والندمان والغيد الحسان ، ومن أشهر جواريه قمر وارماندا ومرغريت وله مقاطيع حسان كان يرتجلها فى مجالس أنسه وشعره الذى قاله أيام محنته يفجر الصم ويزعزع الشم ، وكان لا يتوزر وزيرا إلا أن يكون أديبا شاعرا ، فاجتمع له من الشعراء مالم يجتمع لأحد قبله ومن جملة وزرائه الوزير الاجل ذو الرياستين أبو الوليد أحمد بن زيدون أحد شعراء الاندلس المجيدين ، وفحولها المبرزين صاحب ولادة بنت المستكفى

ولم يصرف الادب والشعر المعتمد عن تدبير ملكه وحسن ادارة شئون بلاده وقد ساعدته الظروف ففاز بضم قرطبة إلى مملكته ، وحقق ماعجز أبوه وجده عن تحقيقه وادراكه ، ذلك ان ابن جهور رئيس الجمهورية كان قد تنازل عن الرياسه لولديه ١٠٦٤ م وقلدعبد الرحمن الشئون المالية والادارية ، ، وعبدالملك قيادة الجند ، وسار كل شيء على أتم ما يرام بفضل حسن سياسة الوزيرابن السقا ولكن المعتمد أوغر صدر عبد الملك على الوزير ابن السقا لحاجة فى نفسه فنكب عبد الملك وزيره المخلص وقتله ، فاضطرب الحال فى قرطبه بعد قتله ، واستقال كل ضباط الجيش وعدد كبيرمن الجند ، ولم يحفل عبد الملك بفضهم فعمل على الغاء النظام الجمهورى ، وفى هـذا الوقت حاصر قرطبة المأمون أمير طليطلة فطلب عبد الملك معونة المعتمد وأمده هـذا بجيش قوى فاضطر جيش طليطلة الى الانسحاب ، ولكن قائد جيش أشبيلية كان قد اتفق مع وجوه مدينةقرطبة

وفق تعليمات سيده على ضمها إلى ملك المعتمد . فبعد انقضاء سبعة أيام على انسحاب جيش طليطلة تأهب عبد الملك لوداع جند أشبيلية الذين كانوا قد أزمعوا الرحيل ، فلم يكد يغادر قصره حتى وجد نفسه محاطا بجماهير الشعب وقوات المعتمد ، وقبض عليه وعلى والده وأسرته واعترفت قرطبة بالمعتمد أميرا عليها وولى عليها ابنه من الرميكية الأمير عباد

ولكن المأمون لم يسلم بالهزيمة ، وعاود الكرة للاستيلاء على قرطبة ومعه حليفه الفونس السادس ، فصدهما الأمير عباد ، ولم يمض على ذلك طويل وقت حتى طمع ابن عكاشة احد قواد المعتمد فى الاستيلاء على قرطبة ، وكان ابن عكاشة حاكما لحصن من حصون المعتمد فتآمر مع غوغاء قرطبة الذين ساءهم ما كان يعاملهم به محمد ابن مارتين قائد حرس الأمير عباد من معاملة جائره .

وفى ليلة عاصفة من يناير عام ١٠٧٥م، دخل ابن عكاشة المدينة مع جمع من رجاله ، وقصدوا قصر عباس فوجدوه بلا حرس فاقتحموه وقتلوا الأمير الشاب ، وألقوا بجثته فى الطريق، ثم اتجهوا إلى قصر محمد بن مارتين وقتلوه أيضا، ثم جمع ابن عكاشة أهل قرطبة فى المسجد الجامع وأخذ عليهم البيعة للمأمون أمير طليطلة ودخل المأمون قرطبة بعد بضعة أيام ، فاغدق العطاء والأنعام على ابن عكاشة ولكن هذا دس للمأمون السم فمات سنة ١٠٧٥م ذلك لأن ابن عكاشة كان قد بلغه أن المأمون يبيت النية على قتله والتخلص منه. وكان المعتمد إذا ذاك حزينا على فقد قرطبة وقتل ولده عباد ، وظل ثلاثة أعوام يحاول استرجاعها حتى وفق إلى ذلك أخيرا فى ١٠٧٨ م حين هاجمها وانتزعها من ابن عكاشة الذى فر منها وقت أن

دخلها المعتمد ، فاتبعه بكوكبة من الفرسان فقبضوا عليه واحضروه إلى المعتمد ، وهذا أمر بقتله وصلبه بجوار جثة كلب، ثم فتح المعتمد قسما من إمارة طليطلة فيما بين الوادى الكبير والوادى اليانع

المعتمد والفونس السادس :

كان المعتمد ملكا قويا من ملوك الأندلس ، ولكنه كان مثلهم يدفع الجزية للمسيحيين وكان الملك الفونس السادس لا يكتفى بالجزية بل يهدد بانتزاع بلاد الأمراء العرب وحصونهم ، وغزا مرة أشبيلية فى جيش عرمرم غير مكتف بأخذ الجزية ، فساد الهلع والذعر لما رأى أهل أشبيلية أن لا قبل لهم بجنوده ، ولكن الوزير ابن عمار لم يداخله اليأس بل عمد إلى مكره ودهائه لدفع عدو بلاده ، وذهب إلى معسكر الفونس ومعه شطرنج بديع الصنع يود كل ملك أن يقتنيه إذ كانت قطعة من العاج والأبنوس المطعم بالذهب ، فلما أراه للملك الفونس عرض هذا عليه أن يلعب معه ، فاشترط ابن عمار أنه اذا غلب أصبح الشطرنج للملك ، أما اذا غلب فانه سيسأل شيئا واحدا ، ولم يقبل الملك أول الأمر شرطا غامضا كهذا ، ولكن رجال حاشيته هونوا عليه الامر ، وقالوا ماذا عساه أن يطلب ، وهل يعجز الملك عن طلب ما ، وكان ابن عمار قد اتفق معهم سرا على تحقيق بغيته ، ووعدهم بمبلغ عظيم من المال . فلما قبل الفونس شرط ابن عمار ولعب معه وغلب فى اللعب قال لابن عمار الآن ماذا تطلب ، قال أن ترجع من هنا الى بلادك ، فاستشاط الملك غضبا ، وعزم أول الامر على نقض ذلك الشرط ، ولكن رجال حاشيته قالوا ان الغدر لا يليق بالملوك ، فقبل الفونس أن يعود الى بلاده ولكنه ضاعف الجزية على أشبيلية ، وهكذا أنقذ ابن عمار بلاده من خطر داهم

سقوط ابن عمار :

أضاف ابن عمار الى مننه وأياديه على مملكة أشبيلية منة جديدة أخرى هى ضم امارة مرسيه اليها ، وكان حاكمها وأميرها أبو عبد الرحمن بن طاهر من عرب قيس ، ولما دخلها ظافرا ظهر بمظهر الملوك مما أوغر صدر المعتمد ، وانتهز حساده الفرصة وعلى رأسهم ابن زيدون فاوقعوا بينهما حتى تنكر كل منهما لصاحبه ، وسولت لابن عمار نفسه أن يستقل بمرسيه ، فقاومه ابن رشيق احد قواد جنده ، واحاط بقصره مما اضطره الى الهرب لاجئا الى الملك الفونس السادس ، ولكن هذا ابى مساعدته ، فلجأ الى المقتدر امير سرقسطة من بنى هود ، ودخل فى خدمة ابنه المؤتمن من بعده ، ولم تزل البلاد تتقاذفه الى ان وقع اسيرا فى ايدى بنى سهيل فباعوه للمعتمد ، وكانت نهايته السجن ثم القتل . والهى حديث ابن عمار اشبيلية عن ان تعد العدة لكارثة تهدد باجتياحها والقضاء عليها